د. بلخضر طيفور

جامعة ابن خلدون - تيارت / الجزائر

محاضرات في ابستيمولوجيا علم السياسة

****

مدخل مفاهيمي للإبستيمولوجيا

- ✓ أولا: مفهوم الإبستيمولوجيا
- ✓ ثانيا: علاقة الإبستيمولوجيا بباقي تخصصات نقد المعرفة

أولا: مفهوم الإبستيمولوجيا

تشعبت الفلسفة في طورها الحديث إلى ثلاثة أفرع هي: المعرفة (الإبستيمولوجيا Epistemology)، الوجود (الأنطولوجيا، Ontology) و القيمة (الأكسيولوجيا Axiology)[1]، والإبستيمولوجيا في اللغات الأوروبية مأخوذة من كلمتين يونانيتين هما: إبستيم « **Epistem** » ومعناها علم، ولوجس « **Logos** » ومن معانيها نقد أو دراسة؛ وتدل هذه الكلمة على فلسفة العلوم، لكن بمعنى أدق فهي ليست المناهج العلمية التي هي موضوع علم المناهج « **Methodology** »، كما أنها ليست توليفا ظنياً بالقوانين العلمية على منوال المدرسة الوضعية « **Positivism** ». جوهرياً الإبستيمولوجيا هي الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها الرامية إلى تحديد أصلها المنطقي، قيمتها ومداها الموضوعي[2].

ويجب التفريق بين "الإبستيمولوجيا" و"نظرية المعرفة" على الرغم من كون الإبستيمولوجيا مدخلا لها ومساعدها، فهي تمتاز عن نظرية المعرفة بأنها تدرس المعرفة بالتفصيل وبشكل بَعْدِي في مختلف العلوم والأغراض أكثر مما تدرسها على صعيد وحدة الفكر[3]. فالإبستيمولوجيا* من حيث الإشتقاق اللغوي هي الدراسة النقدية للعلوم، أما كمصطلح فكري فليس له مدلول واحد في اللغات الأوروبية الحديثة، فهو في اللغتين الإنجليزية والألمانية يعني نظرية المعرفة، أما معناه في اللغة الفرنسية فهو يختلف عن ذلك تماما، لأن الإبستيمولوجيا تهتم بالقضايا التي يطرحها العلم وتتسائل عن قيمة الحقائق التي يتوصل إليها من حيث علاقتها بالواقع، ومعنى هذا أن الإبستيمولوجيا تهتم بالمعرفة العلمية وحدها؛ ولهذا فالإبستيمولوجيا تختلف عن نظرية المعرفة التي تنظر في المعرفة عموما وفي حدودها ومصدرها، أي أنها تبحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها، كما تختلف عن فلسفة

---

[1] محمد نصر عارف، إبستيمولوجيا السياسة المقارنة :النموذج المعرفي، النظرية،المنهج. بيروت :المؤسسة الجامعية للدراسات و التوزيع، 2002 ، ص 22.

[2] موسوعة لالاند الفلسفية، (أندريه لالاند)، المجلد الأول A-G، (ترجمة: خليل أحمد خليل)، بيروت: منشورات عويدات، ط2، 2001، ص 356.

[3] نفس المرجع السابق، ص 357.

* Epistemology باللغة الإنجليزية، و Wissenschaftslehre باللغة الألمانية و Epistemologia باللغة الإيطالية تُستعمل كثيرا خلافا لاشتقاقها للدلالة على نظرية المعرفة أو علم المعرفة، عكس Epistémologie باللغة الفرنسية التي تقصرها على فلسفة العلوم وعلى التاريخ الفلسفي للعلوم، غير أن سيطرة اللغة الإنجليزية جعل هذه المفردة شائعة جدا بالمعنى الألماني Erkenntnistheorie، ولتمييز الإبستيمولوجيا عن نظرية المعرفة فيُستحسن التوسيع من معنى المفردة الأولى بحيث تشمل علم نفس العلوم بالذات، لأن دراسة تطورها الحقيقي لا يمكن فصله عن نقدها المنطقي، والتفريق الذي تجريه اللغة الفرنسية بين الإبستيمولوجيا ونظرية المعرفة Gnoséologie قد يكون مفيدا، لكنه غير معمول به في باقي اللغات المذكورة. للتوسع أكثر الرجوع للمو سوعات الفلسفية.

العلوم باعتبارها دراسة تحليلية نقدية لجميع العلوم. ولهذا تكون مهمة فلسفة العلوم بوجه عام تتمثل في الدراسة النقدية التحليلية لجميع العلوم سعيا وراء الوصول إلى معرفة الأسس المشتركة بينها مما يجعلها جميعا علوماً رغم اختلاف مادة البحث بينها.

وفلسفة العلم بدورها نشأت كإبستيمولوجيا، أي فلسفة معرفية خالصة تجدّ في قطع أي صلة بينها وبين فلسفة القيمة، وتعتبر هذا معلمها المميز الذي تحرص عليه فهي منطق للمنهج الصوري الصارم أو للمنهج التجريبي المرتكز على الواقع والوقائع ولا شأن لها بالمعايير القيمية، وفلسفة العلم في جوهرها هي تساؤل دائم حول عوامل ومبررات نجاح العلم الحديث، وقدمت تفسيرا مكتملا لظاهرة العلم بوصفه فاعلية تخصصية مستقلة[1]، محكومة فقط بالأدوات الإبستيمولوجية كاللغة الرياضية والملاحظة والتجربة ودقة التفسير والتنبؤ، ويغدو تاريخ العلم وأبعاده الإجتماعية والقيمية غير ذات صلة بالموضوع، وظل الأمر كذلك حتى الربع الأخير من القرن العشرين حيث تحررت فلسفة العلم من الإنبهار بالعلم وأدواته، وأدركت أن العلم ليس نسقا واحد وحيدا بل هو ظاهرة حضارية متغيرة عبر التاريخ الإنساني، وتتداخل معها العوامل الحضارية والإجتماعية والأيديولوجية، فالعلم ظاهرة إنسانية متدفقة في السياق الحضاري المتعين؛ وهكذا أسفر هذا التطور على أنسنة العلم أي النظر إليه بوصفه ظاهرة إنسانية يجب البحث في سائر أبعادها الحضارية، من قبيل سوسيولوجيا العلم، وسيكولوجية البحث والإبداع العلمي، وعلاقة العلم بالأطر الأيديولوجية والأنظمة السياسية، والدراسة المقارنة للمؤسسات العلمية وسائر علاقة العلم بالمجتمع[2].

وعلى هذا الأساس فإن فلسفة العلوم ليست في الحقيقة علما يضاف إلى قائمة العلوم كأنه واحد منها ولكنه يأتي بعد العلوم كلها، فيحلل طرقها ومبادئها ونتائجها، ولهذا تكون فلسفة العلوم هي التي تحلل العلم ولا تكون جزءا منه، أي أنها ليست العلم نفسه. وهكذا يتضح الفرق بين فلسفة العلوم من حيث أنها تختص بالمناهج التي تبحث في الواقع، وبين الإبستيمولوجيا من حيث أنها تختص بنقد هذه المناهج ومبادئها ونتائجها وتنظر في مدى مشروعيتها، وتختلف أيضا عن نظرية المعرفة من حيث هي إطار عام تقليدي يطرح إشكالية المعرفة عموما. وفلسفة العلوم نشأت كفرع متميز عن الفلسفة في القرن العشرين في لحظة تصادم أسلوبين من الأحداث: الأول يتمثل في انهيار تقاليد الفلسفة الكانطية*، والثاني هو أزمة العلوم والرياضيات في بدايات القرن العشرين، لكن في حقيقة الأمر فلسفة العلوم لها تاريخ طويل يرجع إلى بدايات التفكير الإنساني لدى الإغريق[3].

وبناءاً على ذلك يمكن القول أن الإبستيمولوجيا تختلف عن نظرية المعرفة وفلسفة العلوم، وقد أوضح ("لالاند" Laaland 1887-1963) ذلك كما تم التطرق إليه من قبل، ولقد استبعدت من قبل المعرفة العلمية من الدراسات الفلسفية التي اهتمت بإشكالية المعرفة وجعلتها مبحثا من مباحثها الأساسية، وظلت الفلسفة تنظر إلى المعرفة العلمية

---

[1] ديفيد روزنيك، أخلاقيات العلم. ترجمة: عبد النور عبد المنعم، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2005.، ص 08.

[2] نفس المرجع السابق، 09.

* يُقصد بالكانطية محاولات كانط لتوضيح حدود العقل البشري باعتباره الموضوع الجدير حقا بالبحث، ذلك لأن علينا كما يقول أن نفحص الأداة (العقل) قبل أن نستخدمها في المجال التطبيقي لنعرف مدى صلاحيتها للعمل ونحذر البدء من بدايات أخرى غير الظواهر المباشرة الموجودة في الزمان والمكان، وهذا بمثابة تحذير مبكر لأخطار العلم اللامحدود، وإنه لمن الغريب والمذهل أنه بعد هذا التحذير اندفع العلم حتى كادت نتائجه أن تفني البشرية في الحربين العالميتين. وقد ألح كانط على الفلاسفة والعلماء من الإندفاع بقوله لهم: حاذروا أن تتقدموا، لكن الفلاسفة اندفعوا للبحث عن الحقيقة المطلقة، والعلماء باتجاه نيل المعرفة الكلية.

[3] Encyclopedia of Philosophy, (Donald M. Borchert and others), 2nd edition, USA, Thomson Star Logo and Macmillan Reference, Printed in the United States of America, 2006. , vol.07, p503.

نظرة خاصة واعتبرتها مثالا للصدق والثبات، ولكن تطور العلم في العصر الحديث وما رافقه من تغيرات جذرية في مفاهيمه ومناهجه وشروطه غير نظرة الفلسفة للعلم، ونتيجة لذلك أصبحت المعرفة العلمية من بين مباحثها فظهرت أولا فلسفة العلوم بمختلف فروعها ثم تبلور أحد فروعها وظهر باسم الإبستيمولوجيا التي ترتكز على جملة من المفاهيم الإجرائية مثل مفهوم العائق والقطيعة وأسلوب الهدم والبناء.

ليس هناك شك في أن استقلال العلوم عن الفلسفة في العصر الحديث كان من أعظم الحوادث في تاريخ الفكر الإنساني، إذ ليس هناك مقارنة بين المعرفة التي كانت سائدة قبل انفصال العلوم عن الفلسفة وبين المعرفة العلمية التي ظهرت بعد ذلك، لقد استطاع العلم المعاصر أن يخطو خطوات عملاقة في الكشف القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية، وتوغل كثيرا في دراسته للظواهر الإنسانية. لكن على الرغم من ذلك لا يمكن الجزم بأن المعرفة العلمية قد بلغت ذروتها سواء في مجال المادة أو الإنسان، لأن يقينها نسبي والكثير من الظواهر لا يمكن ضبطها وهي قائمة على الإحتمال وأما نتائج العلوم الإنسانية بفروعها فهي أكثر احتمالا، ولعل هذا ما دفع ببعض المفكرين في القرن العشرين إلى الإعتراض على قيام العلوم الإنسانية، وكان "برغسون" **Henry Bergson في مقدمة هؤلاء المفكرين، حيث فصل فصلا حاداً بين مجال المادة الذي هو من اختصاص العلم ومجال الإنسان الذي هو من اختصاص الفكر والفلسفة. وجعل معرفة الظواهر المادية من اختصاص العقل والمادة هي الميدان الذي يعمل عليه العقل مشكلا المعرفة العلمية[1]، والتي هي في معاكسة عجيبة لا تستطيع أن تدرس الظواهر الإنسانية ذاتها في نفس الوقت تلك المعرفة هي نتاج الإنسان ذاته.

وتاريخياً مختلف تقاليد دراسات الظواهر الإنسانية حاولت إبستيمولوجيًا التمييز بين الفروق الجوهرية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، ويمكن استنباط ثلاث طرق جدلية اقترنت بثلاث مدارس ارتكزت على الدراسات الإبستيمولوجية: الوضعية « **Positivism** » في مقابل التاريخية « **Historicism** »، الإمبريقية المنطقية « **Logical Empericism** » مقابل النظرية الجدلية« **Dialectical Theory** » والواقعية « **Realism** » في مقابل البنيوية « **Constructivism**» [2]. وكمثال، في حقل السياسة المقارنة اشتد الجدل أكثر قبل وأثناء وبعد الثورة السلوكية بعد التخلص من الدراسات القانونية وبعد انفصالها عن العلوم الإجتماعية، حيث خضع هذا الفرع لامتحان حقيقي واستمر الجدل ولازال وربما حان الوقت لعلماء السياسة ليأخذوا نظرة جديدة لجذور حقلهم المعرفي[3]، ففي الدراسات السياسية المقارنة الإبستيمولوجيا كالأنطولوجيا شغلت حيزا مهما في النقاش من ناحية فلسفة العلم والتمييز بينهما غالبا ما يكون غائبا في الدراسات المقارنة، فالأنطولوجيا من ناحية التأسيس الفكري فهي في هذا المجال دراسة الوجود، أي ماهو ظاهر من الظواهر السياسية أو بنية المواضيع في التحليل المقارن، وهي تهتم بالذي بالإمكان دراسته ومقارنته، وماهية التأسيس في الظواهر السياسية، بكلمات أخرى بالنسبة للسياسة المقارنة

** Henry Bergson (1859-1941): فيلسوف فرنسي ذو نزعة روحانية، وهو أهم ممثلي فلسفة الحياة، تأثر كثيرا بتيار نقد العلم، تعدى المذهب الممثالي والوضعي وجعله يتراجع وأرسى فوقهما تيار فلسفة الحياة، نال جائزة نوبل للآداب سنة 1927، من مؤلفاته (رسالة في المعطيات المباشرة للوعي 1889) يحتوي على نظريته في المعرفة.

[1] بوشنسكي،إ.م، الفلسفة المعاصرة في أوربا، (ترجمة: عزت قرني)، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1992، ص 146.

[2] Encyclopedia of Sociology, (Edgar F. Borgatta and others), p 818.

[3] Erkki Berndtson, Schools of Political Science’ and the Formation of a Discipline, (Prepared for presentation at the XXIst World Congress of the International Political Science Association, July 12- 2009, Santiago de Chile, Chile), p 18.

الأنطولوجيا تهتم بالدول، الأحداث، الفواعل، المؤسسات والعمليات بين باقي المواضيع والظواهر الأخرى القابلة للملاحظة والتي هي بحاجة إلى التفسير.

أما فيما يخص الإبستيمولوجيا في علم السياسة فهي دراسة طبيعة المعرفة السياسية التي تدخل في نطاق مجال وحيز دراسات الظواهر والمواضيع السياسية ، أو كيف بإمكان المذاهب والباحثين معرفة العالم السياسي من خلال الوسائل والمعاني القَبْلية والبَعْدية للظواهر الملاحَظَة، تأثير الإدراك (العقل) والتجربة، وبعكس الأنطولوجيا، فالإبستيمولوجيا في علم السياسة معنية أكثر بمدى إمكانية معرفة العالم السياسي والقواعد التي يتبعها الباحثون في معرفة ذلك العالم[1]، سواء كانت قواعد تخضع للرؤية العلمية الصارمة، وهذا من ناحية رؤية الفكر الفرنسي لمعنى الإبستيمولوجيا أو مجرد دراسات فلسفية تدرس كيف تطورت المعرفة السياسية وتنتهج أسلوب ما يجب أن يكون، أو حتى المزج بين المناهج العلمية والأخذ بعين الإعتبار المعايير القيمية كما هو حال الدراسات الحديثة.

ثانيا: علاقة الإبستيمولوجيا بباقي تخصصات نقد المعرفة

1. الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة:

تختص نظرية المعرفة كما بات معلوماً في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره، وما إذا كانت المعرفة ممكنة وبالسؤال عن أدواتها وحدودها وقيمتها، وتأسست في سياقها هنا عدة مذاهب منها المذهب العقلي الذي يعتبر العقل هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وفيه تتأسس معرفة قبلية فطرية ، والمذهب الحسي- التجريبي الذي يُحيل المعرفة إلى الحواس باعتبار العقل صفحة بيضاء والمذهب الحدسي الذي يُحيل المعرفة إلى الحدس الذي لا يُتوافق على تعريف صارم له. وتبدو علاقة الابستمولوجيا بنظرية المعرفة كأنها علاقة الجنس بالنوع، حيث أن الإبستيمولوجيا تقتصر على شكل وحيد من أشكال المعرفة، وهو المعرفة العلمية. وعلى الرغم من ذلك فإن التمييز سرعان مايندثر عندما نُرجع النوع إلى هذا الجنس وحده، كما هي الحال لدى المؤلفين الذين يطلقون تعبير المعرفة على المعرفة العلمية وحدها ويرون أن كل ما عدا ذلك لعب لفظي خالي من أي مدى معرفي. وذلك ما كان عليه، مثلاً، موقف الوضعيين- المنطقيين في(فيينا)، وهو موقف المدرسة التجريبية المنطقية.

وعلى ذلك فإن هناك من لا يعترف بصحة نظرية المعرفة إلا في حدود إرجاعها إلى الإبستمولوجيا، بل، وبوجه أدق، إلى تحليل العلم تحليلاً منطقياً. وفي فرنسا جعل (ل. روجيه)، الذي يتفق في هذه النقطة مع التجريبية- المنطقية، عبارة "كتاب المعرفة" عنواناً لكتابه الذي يقول فيه أن ليس ثمة من معرفة إلا المعرفة العلمية. فهنالك "علوم زائفة" و قد ُبتَّ في شأنها منذ زمن بعيد. وهذا ما يقف وراء افتخار رونيه ديكارت بأنه "لم ينخدع بوعود السيميائي ولا بتنبوءات المنجّم وأضاليل الساحر". و يلاحظ هنا أنه على الرغم من ذلك، فإن (ديكارت) هذا كان هو نفسه يجعل العلم تابعاً للميتافيزياء مثلما تتغذى الشجرة بجذورها، واليوم أيضاً، يرجع إلى العلم ذاته أن يقول هل تعترف بسمة علمية تسمى أبحاث التخاطر، أو حتى مجرد الفراسة أو قراءة الخطوط لاستشفاف سجية أصحابها. بل وكذلك حال المباحث التي يجمعها عنوان "العلوم المعيارية"، ولكن، بالمقابل، ليس من باب المسألة العلمية أن

[1] John McCormick, Comparative Politics in Transition, p 17.

نطلب معرفة هل توجد إمكانات معرفية خارج العلم أم لا توجد. فمثل هذا السؤال يرجع إلى نظرية عامة عن المعرفة، يكون أحد أغراضها الأساسية هو، بوجه الدقة، تحديد وضع المعرفة العلمية بين أشكال أخرى يمكن تصورها عن المعرفة. ترى هل توجد طرائق معرفية تمنح من دروب أخرى غير دروب العلم أم لا توجد؟. فقد قال فريق من الباحثين بوجود ملكات غير فكرية، أو فكرية جزئياً، كالقلب "ذي الأسباب التي لا يعرفها العقل"، أو الحدس بوصفه "غريزة ينيرها الذكاء"، وهذا ما يسوّغ صحة معرفة صوفية أو ميتافيزيائية. ويقترح آخرون توجيه ملكاتنا الفكرية ذاتها في منحى آخر، شطر "حدس الذوات"، ونؤسس إذ ذاك علماً ظواهرياً فيما وراء العلم بالوقائع. بل إننا، حتى لو قابلنا مثل هذه المزاعم بالرفض، فإننا إنما ننخرط بذلك في أفق فلسفة ما عن المعرفة.

إن التفريق النظري بين الإبستيمولوجيا وبين نظرية المعرفة ضروري مع الاعتراف حقاً بأن هذا التمييز لا يُراعي في الواقع على الدوام، وذلك أولاً لأسباب تتصل بالمفردات وحدها. ففقدان اسم بسيط يمكن أن يُشتق منه نعت وظرف يجعل من اليسير الاستعاضة عن عبارة "نظرية المعرفة" بكلمة أيسر هي كلمة "الإبستيمولوجيا." وقد حاول المعنيون تدارك هذا المحذور بنحت كلمة (علم المعرفة **GNOSELOGIE** ولكن هذه الكلمة لا تكاد تستند إلى جذر وربما استعلمت في اللغة الإيطالية أحياناً، و لكن يبقى استعمالها أمراً نادراً في اللغتين الفرنسية والإنكليزية وهي تكاد أن تكون غائبة في اللغة الألمانية اللهم إلا في شكلها المدرسي في لفظي **EKENNTNITHEORIE** أو **ERKENNTNISLEHRE**.

ولكن (جان بياجه)، مثلاً، يعدّ "الإبستمولوجيا" و"نظرية المعرفة" أمرين مترادفين. ذلك أن العلم والفكر العلمي، إنما ينشئ أحدهما الآخر بالتدريج ودون أن يبلغا حال الإنجاز في تطور المجتمعات وفي نمو الفرد سواء بسواء. وإذ ذلك تكون كل إبستمولوجيا تكوينيةً، سواء تناول الأمر تاريخ العلوم أو علم نفس الطفل، وهي تتسع بالضرورة لنظرية المعرفة، ما دامت تتوخى اجتياز جميع المراحل التي نبلغ بها ما نعدّه اليوم معرفة علمية أي النظر إلى المعرفة في أشكال يمكن أن نحكم بأشكال سابقة للعمل، والتي لا نستطيع، بالرغم من ذلك، أن نمنع عنها أية قيمة علمية ما دام وجودها قد هيأ لضروب التقدم اللاحقة.

زد على ذلك أن مجرد توحيد الإبستيمولوجيا بنظرية المعرفة، وإن كان اليوم لا يكاد يتسق مع الممارسة، فإنه لم يزل ناشطاً لدى كثير من المؤلفين الذين يقرونه دون مناقشة كما لو أنه أمر بديهي. من ذلك المقالة الطويلة في"موسوعة الفلسفة "(1967 (الفرنسية، الخاصة بالإبستمولوجيا، وقد ورد فيها التعريف الآتي: "إن الإبستمولوجياأو نظرية المعرفة هي فرع من الفلسفة يعنى بالطبيعة، وبمدى المعرفة، وبمقولاتها التمهيدية، وبأسسها، وبالثقة الممنوحة لها". ويلي ذلك عرض تاريخي طويل يمتد من العصر القديم اليوناني إلى "فلاسفة اللغة العادية" مروراً على الأخص بالقديس (توما) وبـ(سبينوزا) و(شوبنهور). وقد عرفت "الموسوعة البريطانية **Britanica** " الإبستيمولوجيا بألفاظ شبه مماثلة: "إنها فرع الفلسفة المعني بمشكلات الطبيعة وحدود المعرفة والإعتقاد وصحتهما". أما "الموسوعة الإيطالية" فقد اكتفت في كلمة "الإبستيمولوجيا" بالإحالة على كلمة **GNESOLOGIE** ولنلاحظ، على العكس، أن "موسوعة يونيفرساليس" (1970) تقف في أقصى الطرف المقابل وترفض الاعتراف بأي رباط يصل الإبستيمولوجيا بالفلسفة.

2. الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم:

إن من شأن التمييز الدقيق أن يزداد عسراً بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، وذلك من جراء مرونة هذه العبارة الأخيرة. فثمة من يعترض على السمة الفلسفية للمبحث الإبستيمولوجي حيث أن المهمة الأولى للإبستيمولوجيا تمثل في تعيين معيار قبلي لكل معرفة علمية. فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الأوسع وجدنا أن الإبستمولوجيا فصلاً من فصولها، أو طرازاً من طرز ممارستها. وعلى هذا النحو فإن قراءات في فلسفة العلوم تميز أربع وجوه مختلفة لفلسفة العلم:

- دارسة علاقاته بالعالم وبالمجتمع.
- السعي لوضع العلم داخل مجموعة القيم الإنسانية
- المحاولات الفكرية التي تنطلق من نتائج العلم وتجاوزها لبلوغ ما يمكن تسميته فلسفة الطبيعة.
- التحليل المنطقي للغة العلم.

ويمضي بعض الإيبستمولوجيين إلى أبعد فيقطعون الجسور بين المفهومين، وكأنهم يسعون إلى صون الإبستيمولوجيا، كمصطلح جديد من فساد يصيبها من الفلسفة، الأمر الذي يُقارب بين المفهوم والعلم بمسعىً للإبتعاد غير المبرر عن الفلسفة ، وهذا ما يجعلهم يتحاشون استعمال هذه الكلمة الأخيرة، وهو ما يميل إليه أولئك الذين لا يعترفون بأي شكل للمعرفة سوى الشكل العلمي وينفون بذلك كل فلسفة لا تنحل إلى تحليل العلم، شريطة أن يكون هذا التحليل ذاته بحسب طرائق علمية. وهذا الموقف لا ينطلق دائماً من اتخاذ موقف مضاد للفلسفة، إذ أن الإبستمولوجيا باتت تفلت أكثر فأكثر من قبضة الفلاسفة، وتنتقل إلى العلماء أنفسهم، وهذا سمة من سمات الإبستيمولوجيا المعاصرة الماثلة في اضطلاع العلماء المختصين بالمشكلات الابستمولوجية بالتدريج، وذلك ليس نتيجة وضع عابر، بل لأن الأزمات الحديثة التي زعزعت مختلف العلوم والثورات التي لزم عليها التعامل معها، قد أرغمت أولئك الذين يمارسونها على العودة إلى مبادئها، والتساؤل عن جوهرها. فقول البعض بأن ضروب تقدم العلوم ليست نحو الأمام دوماً، بل إنها قد تكون انعكاسية لذلك هم يميزون ضروب التقدم الخطية عن ضروب التقدم الدائرية، وهو الذي جعل غاستون باشلار يتحدّث عن القطيعة الإبستمولوجية باعتبارها المضمون الذي يقف وراء عدم جعل تاريخ العلم تاريخ تقدم خطي بل هو تاريخ الزمن العمودي أو تاريخ المنفصل أيضاً في العلم.

غير أن الإبستيمولوجيا قد تحولت إلى مبحث من مباحث الفلسفة على مستوى الدراسات الأكاديمية في الإبستمولوجيا. فالإبستمولوجيا ليست من صنع العلماء، وهي لا تخاطبهم إلا عَرَضاً. ومن شأن الفلسفة أن تُعنى عناية عفوية بفلسفة علوم، بهدف إيضاح سبل المعرفة العلمية وتحديد الموضوعات التي تتناولها وتبيان صحتها، أي تبيان أساسها في مضمار الحقيقة، ولكن مسار هذه المعرفة الفلسفية يمرّ بمعرفة العلماء؛ فالمعرفة العلمية، والرياضيات هي ضابطها الرصين ، هي معرفة متحررة من الحس،و متصلة بآلية البرهان ، لكنها عاجزة عن البرهان على حقيقة براهينها الخاصة، وعاجزة عن العثور في ذاتها على أساس مقالها. ولذا يترتب على الفيلسوف أن يعترف في وقت من الأوقات بتخطي صعيد العلم ليكتشف في مكان آخر، ما ينطوي على شروط حقيقته الخاصة. وهنا نلمس إفادة الفلسفة من فلسفة العلوم: إنها لا تجد في المعرفة العلمية موضوع المعرفة وحسب، بل تجد كذلك

ما يميز خصوصيتها. وبعبارة أخرى: إن فلسفة العلوم نشاط هادف فيه يتقرر مصير الفلسفة ذاتها ما دامت الفلسفة تمنح منها كفالة وجودها ذاته، وما الحكم (السلبي) على العلم إلا، في الوقت ذاته، حكم (إيجابي) على الفلسفة، ليس بين العلم والفلسفة في نظر (ديكارت) أي انقطاع، وإنما بينهما اتصال مستمر.

وعلى هذا النحو لا يجد الفيلسوف أمامه من سبيل أفضل من محاكاة العالم واتخاذ العلم أنموذجاً ونقل شكل محاكمات العالم إلى مجالات أخرى يقول: "إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة، التي تعوّد علماء الهندسة استعمالها للوصول إلى أصعب البراهين، أتاحت لي أن أتخيل أن جميع الأشياء، التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية، تتعاقب على صورة واحدة". وعلى هذا النحو لا تتميز الفلسفة بمضّادة العلم، بل بالاستمرار معه. إنها تقلّد العلم، تعيد إحداثه، و تجعله يستمر. ولكن صلتها بالعلم صلة مفارقة ما دامت تسعى إلى استباقه. وبينما كانت الفلسفة في نظر (أفلاطون) خارج العلم، وتأتي بعده، أصبحت لدى (ديكارت) ضمن العلم، وفي منطلقه. لقد صارت الفلسفة بوصفها معرفة أساسية، معرفة الأسس التي تمكن تصورها في منطلق النظام الذي تتكون منه أو في نهايته سواء بسواء. وقد أسهم (ايمانويل كانط) في مزيد من جلاء مسعى إقامة مشروع فلسفي على أساس فلسفة العلوم. فلئن عرفت الرياضيات والفيزياء كيف تلجان "طريق العلم اليقيني" وجب على الفلسفة والميتافيزياء أن تسيرا على الدرب ذاته. وبهذا يترتب على مقال الفيلسوف المرور قبلئذٍ بتمهيد انتقادي. فهو مقال عقلي لأنه محدّد بشروط الإمكان التي ترسم حدوده. وعلى هذا النحو يتضح أن الرياضيات والفيزياء هي من علوم التجربة بالنسبة إلى الشروط القبلية المتصلة بإمكان وجودهما.

ويتضح إذن أن علاقة الفلسفة بالعلم علاقة هادفة على نحو تحققها في فلسفة العلوم. حيث يكون العلم ذريعة التفلسف ويتجلى نشاط هذا التفلسف بتعيين منزلة المعرفة العلمية أولاً، ويتجلى نشاط التفلسف في مضمار العلم في مشكلة هي مشكلة حدود المعرفة، ولا سيما المعرفة العلمية، فهذه المعرفة، على نقيض المزاعم التي تُعزى إليها للتمكن من فضحها، لا تقدر على أن تعرف كل شيء. وأما المشكلة الثالثة فهي تتعلق بمفهوم (العلم) (بالفرد)، حيث لا علم بالمعنى العام في ممارسة العلماء، بل ثمة منظومات معرفة نوعية نامية توائم موضوعاتها أو تعالجها، مثال ذلك المنطق الرياضي، الكيمياء الحيوية، التحليل النفسي، فهذه المباحث الحقيقية ليست مستقلة، رغم فصلها الإجرائي. غير أن لها استقلالاً ذاتياً على نحو نسبي: إنها لا تجمد البتة في نطاق تصنيف ثابت لا يتغير، بل هي، على العكس، تصدر عن تبادل موصول بين وسائلها وأغراضها.

وهذا التبادل يغيّر تخومها ويخضعها على الدوام لشروط محدّدة ومتبدلة داخل تاريخ علوم حقيقي. وينجم عن/جهل/ تجاهل الفلسفة لهذه المعطيات المتصلة بممارسة العلماء الحقيقية أن استحدث الفلاسفة فكرة(علم) سرمدي يُظن أن فكرته البسيطة توجد خارج كل تاريخ، ولكن فلسفة العلوم، بل فلسفة (العلم) بالمفرد لا تلبث أن تستبدل بهذا الموضوع المثالي موضوعات حقيقية هي الطرز المتنوعة التي يعلم عليها العلماء مادياً، والتي بالانطلاق منها يبنون بآن واحد نظرياتهم والروابط الموضوعية . إن وهم (العلم) لايوجد إذن إلا لدى الفلاسفة وإن فلسفة العلوم لتردّ هذا الوهم، ولكن أغلب الباحثين يعزف اليوم عن هذا التعريف الواسع ويرون أن للإبستمولوجيا وظيفة أدق وأكثر تحديداً. فالإبستمولوجيا هي مبحث نقدي، وبهذا يتحدد مجال نشاطها. وهي تدرس شروط إمكان إنتاج معارف

علمية. وهي بذاتها دراسة وضعية، ودراسة خاصة، وهي تفترض توافر طرائق وتقنيات محدّدة، وكأنها جزء مقتطع من فلسفة العلوم، جزء يطرح أسئلة وضعية عن مسيرة المعرفة العلمية، ويتخذ ما يتوصل إليه من أجوبة منطلق حكم على طبيعة هذا المعرفة ووسائلها وغاياتها.

ولكن كل إبستيمولوجيا ليست تاريخية بالضرورة، ففلسفة العلوم سبقت الإبستمولوجيا، كما سبقت نظرية المعرفة تلك الفلسفة. والجدير بالذكر أن فلسفة العلوم في نظر(كانط) ومن بعده كانت أشبه بلجنة مراقبة تضبط شروط صحة المعرفة التي يسارع العلماء بطبعهم إلى تحاشي قراراتها ولكنها تلاحقهم بما يتوجب عليهم من الموانع والمحظورات والتصنيفات بذريعة حمايتهم من خطر وقوع العلم في التعسف.

يقول (باشلار): "إن العقل ينمو في جو الأزمة، وكل نضج فكري مزعوم بشكل عائقاً في درب المعرفة". وهنا دور الفلسفة وبالتحديد الإبستمولوجيا. ويجب التنويه إلى "انفصام الفكر العلمي الحقيقي الحديث عن مجرد فكر النظام والتصنيف" وكذلك ينبغي أن نميز كل التمييز الفكر العلمي النظامي الذي يعمر مخبر البحث عن الفكر العلمي الزمني الذي يلقى أتباعه في دنيا الفلاسفة." وإذ يُقر روبرت بلانشيه أن الرجوع التفكيري إلى مبادئ العلم وطرائقه لا يوجب على الدوام الانخراط في فلسفة، وليس كل ما وراء العلم فلسفياً بالضرورة، ولكنه يلاحظ أنه بما أن التفكير يتسع لازدواج غير محدود وأن كل ما وراء اللغة يمكن اعتباره بدوره موضوع ما وراء لغة من درجة أعلى – وذلك كلما رقينا في معراج تسلسل ما وراء اللغة، فإننا سنرى بالتدريج رجوع العلماء لمناقشة المشكلات الفلسفية القديمة في أشكال متجددة، وكذلك انقسام العلماء، كانقسام الفلاسفة ، إلى فريقين لا يستطيعان التفاهم حول معنيي الكلمة: الإتفاق على حلّ، ولا حتى أن يتفاهم بعضهم مع بعض تفاهماً صحيحاً.فإذا حرصنا على تمييز الإبستمولوجياعن الفلسفة وجب إما أن نقول إن الإبستمولوجيا جزء من فلسفة العلم من حيث اختلاف السعة، وأنها الجزء الأقرب من العلم بلا ريب، واليوم أكثر من أي وقت مضى، من حيث روحها وطرائقها، أو نقول إن الإبستمولوجيا تشغل منطقة متوسطة بين العلم والفلسفة وأنها تفيض بطرفيها في كل منهما. لكن هذه المحاولة من بلانشيه توسّطية وكأنها تريد اعترافاً بالإبستمولوجيا إزاء سطوة العلم، في الوقت الذي تشكل فيه مبحثاً مستقلاً لا تحتاج فيه إلى كل هذا التلطّي خلف العلم أو الاعتراف بدلالته، ففلسفة العلوم مساحة مختلفة تتقاطع أحياناً مع الإبستمولوجيا وتتباين أحياناً أخرى لتأخذ شكلها الخاص.

3. الإبستيمولوجيا وعلم المناهج (الميتودولوجيا):

الميتودولوجيا اشتقاقاً تأتي من (Méthode) وهي مُشتقة من (Méthodos) اليونانية ومعناها الطريق إلى أو –لاحقاً- المنهج المؤدي إلى ... ، وبعد تطور الكلمة باتت تدل على مجموعة العمليات العقلية والعملية (الممارسة) التي يقوم بها العالم من بدء بحثه إلى نهايته من أجل الكشف عن حقيقة أمر أو واقع ما والبرهان على الفرضيات الموضوعة للوصول إليه. والواقع أن علم المنهج هو مناهج ،لأن لكل علم طريقته أو الوسيلة المنهجية التي يتم اعتمادها، فبعضها تجريبي وبعضها يتجاوز ذلك إلى الرياضيات ... والأهم أن الميتودولوجيا لا تأتي قبل العلم إنما هي تتبع فلسفي للطريقة التي سار عليها العالم حتى وصل إلى النتيجة التي استدعت بالنظر إلى مصداقية منهجه إلى تحوّل هذا المنهج إلى طريقة عامة تستدعي اعتبارها منهجاً يستوجب التعميم علمياً والدراسة فلسفياً، حيث أن

ليس على الفيلسوف أن يُعين للعالم المنهج بل يدرس بعد قيام العمل العلمي منهجه. وقد يناقش وينتقد، كل ذلك من أجل صياغتها صياغة نظرية منطقية قد تفيد العالم في بحثه، وتجعله أكثر وعياً لطبيعة عمله.

وبحسب "كلود برنار": فإن المناهج و طرق البحث العلمي لا يتم تعلمها إلا في المختبرات، حينما يكون العالم أمام مشاكل الطبيعة وجهاً لوجه، يصارعها ويشتبك معها. فإلى هنا يجب توجيه الباحث المبتدئ أولاً. أما البحث الوثائقي والنقد العلمي، فهما من شأن المفكرين الناضجين، ولا يمكن أن يثمروا إلا بعد البدء في التدريب على العلم وتحصيله في معبده الحقيقي، أي في المختبر العلمي". ثم يضيف قائلاً:" إن العمليات الفكرية الاستدلالية لا بد أن تتنوع لدى المجرب، إلى غير نهاية، نظراً لتنوع العلوم، ولتفاوت الحالات التي يعالجها- العلم- صعوبة وتعقيداً. أن العلماء، بالذات المختصون منهم في العلوم المختلفة- هم وحدهم المؤهلون للخوض في مثل هذه المسائل".

وهكذا، فإذا كانت الإبستيمولوجيا تتناول بالدرس والنقد مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد قيمتها وحصيلتها الموضوعية، فإن الميتودولوجيا تقتصر، في الغالب على دراسة المناهج العلمية، دراسة وصفية تحليلية، لبيان مراحل عملية الكشف العلمي، وطبيعة العلاقة التي تقوم بين الفكر والواقع خلال هذه العملية. فهناك فرق بينهما في مستوى التحليل فمستوى التحليل في الميتودولوجيا، علاوة على كونها تتناول كل علم على حدة، مقصور في الغالب على الدراسة الوصفية، في حين أن الايبستيمولوجيا، فضلاً عن طموحها إلى أن تكون نظرية عامة في العلوم، ترتفع إلى مستوى أعلى من التحليل، وهو مستوى البحث النقدي الرامي إلى استخلاص الفلسفة التي ينطوي عليها، ضمنياً، التفكير العلمي. إن من جملة المسائل التي تناولها بالنقد، المناهج العلمية ذاتها، تبحث عن ثغراتها وتعمل على معالجتها. وكما يقول"جان بياجيه" بحق، فإن "التفكير الإبستيمولوجي يولد دائماً بسبب "أزمات" هذا العلم أو ذاك، أزمات تنشأ بسبب خطأ في المناهج السابقة وتعالج باكتشاف مناهج جديدة". ومن هنا يمكن القول:" أن الإبستيمولوجيا هي ميتودولوجيا من الدرجة الثانية."

السؤال يطرح نفسه هنا على "بلانشيه" : هل ينبغي اعتبار الإبستمولوجيا وعلم المناهج (الميتودلوجيا) مبحثين متمايزين والاقتصار على القول بارتباطهما وحسب أم يجب النظر إلى أن علم المناهج (الميتودلوجيا) يدخل في الإبستمولوجيا، على العكس، دخول عنصر من عناصرها؟. إن معجم (لالاند) يفرّق أحداهما عن الأخرى ويرى أن الإبستيمولوجيا، بالمعنى الدقيق، ليست "دراسة الطرائق العلمية، فهذا الدراسة موضوع المنهجية، وهي جزء من المنطق"، على اعتبار أن السياق المدرسي الفرنسي لا يزال مُصراً على وضع علم المناهج في ملكوت المنطق، حيث في حوالي سنة (1900) كان من الشائع في التعليم الجامعي الفرنسي إضفاء معنى واسعاً جداً على كلمة منطق. فكانوا يقسمونه إلى قسمين: منطق سُمّي منطقاً عاماً وهو ينصرف عن الموضوعات التي تشكّل مادة المعرفة ويكون موضوعه الأساسي هو المنطق الصوري؛ ومنطق خاص أو تطبيقي، وهو يدرس الطرائق الخاصة بكل علم من العلوم المختلفة. وهكذا تندرج علم المناهج (الميتودولوجيا) في المنطق على أنها أحد شطريه، ولكن توسيع كلمة منطق على هذا النحو لم يبق موافقاً لما ندعوه اليوم باسم المنطق. فعلم المناهج ، حتى لو جاور المنطق، يظل غريباً عنه. هل يتراصف علم المناهج (الميتودولوجيا) مع الإبستمولوجيا تراصفاً بسيطاً؟ إن من الصعب الإنصراف إلى دراسة مبادئ العلوم المختلفة وقيمها ومداها الموضوعي دراسة انتقادية، كما يقول (لالاند)، دون التساؤل في الوقت

ذاته عن طبيعة وقيمة الطرائق التي تبني بها ذاتها وتصل إلى معرفة ذات قيمة موضوعية. وقد أصاب (بياجيه)، ومعه باشلار ، بملاحظته أن التفكير الابستمولوجي يولد على الدوام بمناسبة "أزمات" هذا العلم أو ذاك لذا نجده يدمج تحليل الطرائق العلمية في الإبستيمولوجيا ومن الشاقّ في الواقع فصل هذين النظامين من البحث أحدهما عن الأخر. وعندما أبرز (هنري بوانكاره) دور المحاكمة الإرجاعية في الرياضيات فإنه كان يقوم بعمل منهجي. ولكن ازدياد أهمية مفهوم الإرجاع واستعمال الطرق الإرجاعية جعلا من المحال أن يهمل الإبستمولوجي دراستها بإحالتها على سواه. وكذلك نجد الباحثين في تيار من أوسع تيارات الإبستمولوجيا المعاصرة وهو التيار الذي ينهل من الاختبارية المنطقية، نجدهم يكثرون دراسة الاستقراء وشروط تحقيق القضايا التجريبية أو تأييدها...الخ، دون أن يذهب بهم الظن البتة إلى عدّ هذا الدراسة جدولاً مفارقاً. يتضح إذن أن من المناسب ألاّ نضع علم المناهج (الميثودلوجيا) في مجال المنطق، إلا بمعنى غير سائد بل منتهٍ من معاني الكلمة عند الاضطرار، وإنما نضعها حقاً في نطاق الإبستيمولوجيا.

4. الإبستمولوجيا والعلوم الإنسانية:

إن العلوم الإنسانية، من حيث هي علوم بالمعنى الواسع للكلمة، تقدم للإبستمولوجيا أحد موضوعاتها. ولذا فإن علاقة الإبستمولوجيا بهذه العلوم هي من الناحية المبدئية، شبيه بعلاقتها بالعلوم الرياضية أو بعلوم الطبيعة، والإبستمولوجيا تقع بالنسبة إليها في مستوى أعلى تهيمن منه عليها. إنها تهيمن عليها من مستوى أعلى متفاوت العلوم، وبقدر انبثاق التفكير الإبستيمولوجي مباشرة عن ومآزق العمل العلمي نجد يبقى قريباً جد قريب من هذا العمل باعتبار نوعيته: فالإبستمولوجيا الداخلية للرياضيات مطبوعة انطباعاً قوياً بروح الرياضيات وطرائقها، وهي غريبة كل الغرابة عن العلوم الإنسانية. بينما نرى، لسبب ذاته، أن التحليلات التي يقوم بها علماء وعلماء النفس وعلماء الاقتصاد واللغويون والتي يتنازعون فيها حول طريق معالجة دراساتهم ومتابعتها، لا تزال مطبوعة بطابع البحوث ذاتها التي تشكل موضوع هذه العلوم. ولكن ذلك لا يعني أخيراً أنها أقل تميزاً عنها من حيث طبيعتها مثلما يتميز ما رواء العلم عن العلم الذي يتناوله. وكما يرجع الفكر إلى مبعدة عن موضوعه ليتسنى له ضم جملة أوسع فإنه يتخلص شيئاً فشيئاً من الجانب النوعي لهذه الجملة.

وبذا ندرك أن الإبستيمولوجيا العامة التي تتناول جملة العلوم لا يبدو أنها تنتمي إلى العلوم الإنسانية بأكثر من انتمائها إلى الرياضيات أو الفيزياء. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمور أكثر تعقيداً مما يبدو، وفي وسعنا أن نتساءل، ونحن نقلب المنظور رأساً على عقب: هلاّ تنتمي الإبستمولوجيا برمتها إلى العلوم الإنسانية من بعض أوجه الإعتبار. من الملاحظ أن موقع الإبستمولوجياهو من جهة العلوم المسماة "معنوية" أو "إنسانية". وقد شغل كثير من الإبستمولوجيين، ومنهم (باشلار) مقعده في (أكاديمية العلوم المعنوية والسياسية)، واحتل كرسيه الجامعية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية. وهناك من كان يميز ضمن أربعة طرز مختلفة للتفلسف في العلم، واحد منهم هو طراز تخلى عنه هو ذاته في آخر المطاف، وهو دراسة علاقات العلم بالعالم وبالمجتمع. العلم بوصفه نشاطاً إنسانياً، وظاهرة اجتماعية. وكذلك فإن (هانز ريشنباخ) يرسم ثلاث مهمات متعاقبة للإبستمولوجيا: الأولى تتصل بعلم النفس وعلم الاجتماع، وهي تجري في"سياق الاكتشاف" ثم يلي"سياق التسويغ" وهو عمل"إعادة بناء عقلي" لطريقة

الاكتشاف. وأخيراً مهمة نقدية بالدرجة الأولى، وهي تبدأ سلفاً لدى إعادة البناء العقلي. ولكنها تتخلص الآن تماماً من علاقاتها بعوامل الاكتشاف الاختبارية. وإن الثانية التي تفترض بدورها الأولى. فإذا فهمنا حق الفهم ألفينا أننا نميز بوجهين: الأول وصفي، والآخر انتقادي، وكلاهما يقوم على اتخاذ العلم موضوع الدراسة: سواء من حيث أنه يوجد بوصفه واقعاً من طبيعة نفسية واجتماعية وتاريخية.

إذ ذاك يمكن البتّ بإبعاد تاريخ العلوم وعلم النفس الاكتشاف العلمي عن مضمار الإبستمولوجيا، ما داما ينتميان إلى علوم اختبارية متصلة بمعرفة الحوادث، وهما يجريان في الإطار المكاني- الزماني، بينما يتميز تحليل العلم من الناحية المنطقية بأن له طبيعة أخرى. وفي إثر إنجاز هذا الاختبار الأول يجب الإسراع إلى اختبار ثان حتى نزيده دقة: أترانا ندعم تفريق هذين النوعين من البحث أم نقرّ بأن على الإبستمولوجيا أن تستمد غذاءها إلى حد كبير أو صغير من المعلومات التي قد تستنتجها من التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس بالرغم من تميزها عنها التميز كله ؟ لقد اعتنق التصور الأول الإبستيمولوجيون المنتمون إلى الاختبارية المنطقية. وقد اتخذت أعمالهم، بالدرجة الأولى، موضوعها ما نعده اليوم بالمعنى الدقيق، أي العلم الحاضر.

ولئن برهنت هذه النظرة إلى الإبستيمولوجيا على جدارتها، فإن ذلك لا يمنع توافر دروب بحث أخرى. أفلا يرجع قصر التحليل على العصر والتغافل عن الطريقة التي قد تكون بها بالتدريج، ألا يرجع في آخر المطاف إلى نقل قسم كبير مما يبق العلم وأعدّه، بما في ذلك العلم المدرس، إلى ما قبل تاريخ العلم تماماً، وعلى الأقل إلى نوع من عصر وسيط علمي؟ أولا نجازف من ناحية أخرى، بالسقوط في شكل أقصى من أشكال الإسمية باقتصارنا اقتصاراً منهجياً على الدالّ وحده، وكأنه يلغي ذاته بذاته ولا يتطلع فيما وراء ذلك إلى مدلول؟ إن أفضل الأوضاع الممكنة بصدد مسألة علاقات الإبستمولوجيا بالعلوم الإنسانية إنما يبدو لنا على النحو الآتي: فمن جهة أولى، عدم قصر الإبستمولوجيا على تحليل اللغة العلمية، فذاك تصور خصب ولكنه ضيق وجزئي. وقبول حقل بحوث أوسع للإبستمولوجيا، وبالدرجة الأولى البحوث المتصلة ببناء العلم تدريجياً وبنشأة الفكر العلمي ونموه، وهذه البحوث تستلزم اللجوء إلى العلوم الإنسانية ومن جهة أخرى، العزوف من جراء ذلك عن تصنيف الإبستمولوجيا ضمن العلوم الإنسانية، وعدم الحطّ من شأن الإبستيمولوجيا بوضعها على قدم المساواة مع بعض العلوم التي تهدف هي إلى اتخاذ موضوعاً، حتى ولو كان التفريق غير جلي دوماً من الناحية العملية بين الغاية والوسائل، بين ما هو خاص بالإبستيمولوجي وبين التعاليم التي سيطلبها من التكون النفسي والتكون الإجتماعي ليدرك غرضه ، إن الإبستمولوجيين الأمريكيين يرجعون بوجه عام إلى مناهل اللغة المصوغة من أجل تحليلاتهم.

ولكننا لن نستخلص من ذلك صواب نقد الإبستمولوجيا إلى جانب العلوم الصورية أما الإبستمولوجيون الأوروبيون فإنهم يلجأون في الغالب، وبصورة منهجية، إلى مناهل العلوم الإنسانية. ولكن رجوعهم هذا لا يبدو لنا أنه سبب كافٍ لانضواء هذه العلوم تحت لواء الإبستمولوجيا. ويبقى من البديهي أن ليس لحوافز هذا اليسر الإداري الذي قد يملي هذا التقارب أن تتدخل هنا.[1]

---

[1] للتوسع أكثر يرجى البحث في المصادر التالية:
- موسوعة لالاند الفلسفية.

5. الإبستيمولوجيا وسوسيولوجيا المعرفة:

هذا النوع من الدراسات النقدية يتناول ويبحث الظروف الخارجية لعملية إنتاج المعرفة من مؤثرات اجتماعية وسياسية واقتصادية التي سهلت أو عرقلت إدراك المعاني، وتلك الظروف قد تكون على مستوى البيئة الداخلية للمجتمع المنتج للمعرفة، أو ناتجة عن تأثير البيئة الدولية أو العالمية التي يعيش ضمنها ذلك المجتمع بحيث يؤثر فيها ويتأثر بها في نفس الوقت.

6. الإبستيمولوجيا وسيكولوجية المعرفة:

الدراسة النفسية للمعرفة أو ما يطلق عليه cognitive psycology تركز على قدرات الإدراك والمعرفة وتطورها ونموها، وتلك القدرات هي دراسة التأثيرات النفسية للباحث أو للمجتمع العلمي في لحظات عملية إنتاج المعرفة.

7. الإبستيمولوجيا وتاريخ العلم:

تركز الدراسات التاريخية للمعرفة على تاريخ وتطور المعارف سواء كانت علمية أو معيارية، مثل تاريخ الفلسفة، تاريخ علم السياسة، تاريخ علم الإجتماع ... إلخ. هي إذن تؤرخ لتطور المعرفة، بمعنى أنها تعالج المعرفة كجزء من السيرورة التاريخية.

8. الإبستيمولوجيا وعلم اجتماع العلم:

يركز هذا النوع من الدراســـات النقدية للمعرفة على المؤثرات والتســـهيلات والمعوقات النابعة من داخل المجتمع العلمي كمجتمع له مصالحه وأهدافه ومواطن صراعه، أي يدرس مختلف العلاقات التي تربط بين الأبنية الأكاديمية ســواء كانت تلك العلاقات بين العلماء أنفســهم أو بينهم وبين من لهم مصـــالح في منتجات المعرفة من صانعي القرار أو المؤسسات التي تخدم النشاط المعرفي لكن بشرط تبادل المنافع والمصالح.

- موسوعة الفلسفة، (عبد الرحمان بدوي).

– Logique et connaissance Scientifique Encyclopédie de la pléiade.
- Psychologie et Epistémologie.
- Introduction à l'Epistémologie pénétique, P.U.F 1950.
- Epistémologie génétique- J. Piaget.
- J. Piaget : Programme et méthodes de l'épistémologie génétique in Epistémologie génétique et recherches psychologiques N° 1 des études d'Epistémologie génétique" PARIS, P.U.F, 1957.